

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير جزء عمّ
د. محمد الخضير

الدرس (١٩)

سور: قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومنّ والاه.

مشاهدي الكرام مرحباً بكم في حلقة جديدة من حلقات دروس التفسير في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة. أحبيكم وأحيي الإخوة معنا في الاستوديو، فحيّاكم الله جميعاً.

في هذا اللقاء - بإذن الله عز وجل - سنتحدث عن تفسير خمس سور من
قصار المفصل وصلنا إليها.

السورة الأولى سورة قريش، ثم الماعون، ثم الكوثر، ثم الكافرون، ثم النصر.
نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن ينفعنا بهذه السور وأن يعلمنا ما فيها من
الهدايات والدروس والعبر.

أول هذه السور سورة قريش - كما يبدو أماكهم في الشاشة - هذه السورة
سورة مكية، وهذه السورة - كما تعودنا - اسمها سورة قريش، ويُقال لإيلاف
قريش، وهي سورة مكيّة، وهذا ظاهر من أسلوبها، وظاهر أيضاً من موضوعها،
وهي أيضاً تخاطب قريش الذي بعث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،
فهي تذكرهم بنعمة الله عليهم التي يجب عليهم أن يشكروها فيوحدوا الله -
سبحانه وتعالى - بالعبادة.

وهذا يجعلنا نتحدث عن محورها، فهي تبين أنه يجب أن تُقابل نِعَمَ الله
بالشكر. والعجيب أنه في قصار المفصل نلاحظ كثيراً أنه تذكر نعم الله على
العباد ويُطلب منه أن يشكرها.

تأملوا ذلك في سورة الضحى {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ *
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى ٦-١١]، وهلمَّ جرّاً، يمر بنا في عدد ن

السور ذكر نعم الله على العبد، وذكر ما يجب على العبد تجاه تلك النعم من الشكر والعبادة والتوحيد لله -عز وجل.

أما مناسبة هذه السورة لما قبلها فهي مناسبة ظاهرة جداً حتى كان بعض أهل العلم أو بعض السلف يرى أن هذه السورة هي جزء من السورة التي قبلها، فيرون أن سورة قريش والفيل سورة واحدة، وهي كذلك في مصحف أبيّ، مصحف أبيّ بن كعب كانت هاتان السورتان سورة واحدة، وسيأتي الكلام عليها بعد قليل في الحديث عن معنى قوله {لِيلَافِ قُرَيْشٍ}، ولكن مصاحف المسلمين المجمع عليها جعلت فيها هاتان السورتان سورتين منفصلتين، فسورة الفيل ثم سورة قريش، وقد فصل إحداهما عن الأخرى.

نأتي إلى آيات هذه السورة العظيمة وهي قوله -سبحانه وتعالى: {لِيلَافِ قُرَيْشٍ}، طبعاً عدّة آيات هذه السورة أربع آيات، وعدّها بعضهم خمس آيات بحيث أنه قال: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ} آية، و{وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} آية أخرى، فصارت خمس آيات عن بعض العادّين، وأربع آيات عند آخرين.

قال الله -عز وجل- في مقدمتها: {لِيلَافِ قُرَيْشٍ}.

{لِيلَافِ} تأتي بمعنىين، {لِيلَافِ قُرَيْشٍ}، أي لاعتقاد قريش. ألف الشيء أي اعتاده مرّة بعد أخرى.

و{لِيلَافٍ} تأتي لاجتماع وتآلف الناس وتقاربهم واجتماع شأهم، فيمكن أن تكون بهذا المعنى، ويمكن أن تكون بهذا المعنى، أي لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت، ويأتي هنا المعنى.

بأي شيء تتعلق هذه الكلمة؟ لأن {لِيلَافٍ} لا بد أن تكون متعلقة بشيء. فمن العلماء مَنْ قال: {لِيلَافٍ قُرَيْشٍ} متعلقة بما بعدها وهو قوله {فَلْيَعْبُدُوا}، ويكون المعنى: لتعبد قريش ربَّ البيت، لأن الله - سبحانه وتعالى - عودَّها رحلة الشتاء والصيف، أو جمعها على رحلة الشتاء والصيف التي كانت من أعظم نعم الله عليهم، حيث كانت تؤمِّن لهم تجارهم وأرزاقهم وأطعمتهم. فيكون معنى قوله {لِيلَافٍ قُرَيْشٍ}: لتعبد قريش ربها لأنه آلفها، لأنه عودَّها هاتين الرحلتين ومكَّنهما منهما، ويسر لهم هذه الرحلة. هذا قول.

القول الثاني: أنها مرتبطة بسورة الفيل، ومن هنا جاء قول مَنْ قال أنهما سورتان في سورة، أو أنهما سورة واحدة، فكأنه يقول: فعذب أصحاب الفيل وجعلهم كعصف مأكول لأجل إيلاف قريش، لأجل أن تبقى قريش ويحصل لها هذا الخير الذي حصل بأن تذهب إلى رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

والقول الثالث من أقوال أهل العلم وهو الذي اختاره الإمام الطبري - رحمه الله: أنه جعل الفعل الذي تتعلق به قوله {لِيلَافٍ} فعلاً مقدرًا، أي: اعجبوا لإيلاف رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب البيت، اعجبوا لكون هؤلاء قد ألفتوا أن يرحلوا في الصيف وفي الشتاء فيجلبوا التجارة ويحصلوا الأرزاق،

واعجبوا لهم في تركهم عبادة الرب الذي أعطاهم هذه النعمة. وهذا رأي الإمام الطبري.

وأما ابن كثير - رحمه الله - فقد اختار أن السورتين مكملتان إحداهما للأخرى، فيرى أنه قوله {لِيَلِافِ قُرَيْشٍ} مرتبطة بسورة الفيل، أي عذب الله أصحاب الفيل فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ لِيَلِافِ قُرَيْشٍ. واضح هذه؟
 لاجتماع أهل مكة ولباقتهم.

والقول الأول هو أقرب الأقوال، وهو {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}، أي ليعبد، لتعبد قريش رب هذا البيت لأنه آلفها على هاتين الرحلتين، فكأنه يقول: الله - سبحانه وتعالى - هو الذي عودكم على هذه الرحلة وجمعكم عليها، فيجب عليكم أن تعبدوه، ويجب عليكم ألا تشاركوا معه أحد سواه.
 قوله: {لِيَلِافِ قُرَيْشٍ} (١) {إِلِافِهِمْ}، لاحظوا أن هذه ياء لم تكتب في الرسم، ولكنها كتبت في الضبط، فتتطرق ليست "إلفهم" كما يفعل بعض الناس؛ بل يُقال: "إلفهم"، بياء.

ومعنى قوله {إِلِافِهِمْ} هي تأكيد لقوله {لِيَلِافِ} فهو يقول: {لِيَلِافِ قُرَيْشٍ} ماذا؟ {إِلِافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ} فهي بدل من {لِيَلِافِ} الأولى.

ماذا آلفهم الله - عز وجل - وعودهم أو معهم؟ {رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}، كان لقريش رحلتان:

الرحلة الأولى: رحلة الشتاء، وكانت إلى بلاد اليمن، وكانوا يجلبون من اليمن الأرزاق والمؤن والأقوات، وكان لا يتعرضهم أحد، ولا يخلفهم في بلدهم أحد من أعدائهم، بخلاف سائر القبائل، لاحظتم؟! وهذه نعمة عظيمة أن يخرج المكيون إلى بلاد اليمن وهم آمنون على أنفسهم في رحلتهم، وآمنون على بلادهم من ورائهم، وهذا فيه من النعمة ما لا يخفى على أحد، لا يوجد في الأرض أحد يوازيهم في هذه النعمة، سبحان الله! لأن الله آمنهم، خصوصاً بعدما حصلت قصة أبرهة، وقصة الفيل عندما جاء هؤلاء إلى مكة من أجل أن يهدموا بيت الله، جاءت الطير الأبايل فدمرت هذا الجيش بأكمله، فعند ذلك أذعنت العرب، وقالت: هذا بيت الله، وهؤلاء قُطَّان بيت الله، فهم آمنون لا يقرهم أحد بسوء، ولا يخلفهم أحد على بلدهم بسوء. سبحان الله!

قال: {إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}، رحلة الشتاء لليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وهكذا كانت عادة عند قريش، في وقت الصيف يذهبون إلى بلاد الشام، وفي وقت الشام يذهبون إلى بلاد اليمن، ومن كل بلد باتون بما فيه من الأرزاق والمؤن والأقوات، ويداولون التجارة، وبهذا أنعشهم الله وعاشوا عيشة رغيدة، وإلا فبدلهم -كما وصف الله سبحانه وتعالى: {غَيْرِ ذِي زَرْعٍ} [إبراهيم: ٣٧]، ليس فيها زرع ولا نهر ولا شيء من الأرزاق التي يمكن أن يحيى أهلها بها، ولكن الله يسر لهم هاتين الرحلتين.

ثم قال: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}، أي جزاء هذه النعمة يجب عليهم أن يتوجهوا بالعبادة إلى الله، لأن الله هو الذي أَمَّنهم.

إذن فمقابل هذه النعمة أن يُفرد الله بالعبادة، قال: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}، ولم يقل: "فليعبدوا هذا البيت"، فهذا البيت مخلوق، والمطلوب أن يُعبد الخالق - سبحانه وتعالى - الذي هو رب هذا البيت.

ويذكرون في قصة يحكوها أن عالماً كان في الحرم يقول في درسه: يا كعبة الله - يستغيث بها ويسألها من دون الله.

فجاء الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - وكان يسمعه يقول ذلك، ففكر في الطريقة التي يُقنعه بأن هذا لا يجوز، فقال له: إني أرغب أن أقرأ عليك آيات من القرآن الكريم وتصحح لي، فقبل الشيخ بعد تردد.

فأخذ الشيخ يقرأ عليه بعض السور القصار حتى وصل إلى سورة لإيلاف قريش، فقرأ الشيخ بهذه الطريقة "فليعبدوا هذا البيت"، فقال الشيخ: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}، فأعادها الشيخ بقول: "فليعبدوا هذا البيت"، فأنكر عليه الشيخ إنكاراً عظيماً، كيف تقول: "فليعبدوا هذا البيت"، {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}.

فقال له الشيخ محمد: أنا تعلمت هذا منك، لأنك تقول في ثنايا درسك: يا كعبة الله - تناديها - إذن فليعبدوا هذا البيت، فتفطن الشيخ لخطئه كيف يصرف

العبادة لغير الله؟! وكيف يستغيث ويستجير بالمخلوق ويترك رب البيت الله - سبحانه وتعالى - الذي يجب ألا يُستجار إلا به ولا يُستغاث إلا بجنابه العظيم؟! قال: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}، والبيت المقصود به الكعبة، هذا بيت اللهو ونسبة هذا البيت إلى الله وإضافته إليه إضافة تشريف، لأن أي مخلوق يُضاف إلى الله فالإضافة فيها إضافة تشريف، كما قيل: ناقة الله، بيت الله، ونحو ذلك.

قال: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ} رب هذا البيت يذكرهم بأنه قد صنع لهم أمرين عظيمين لا تتحقق الحياة بالطمأنينة والاستقرار إلا بهما، وهما:

- أن يأمن الإنسان الأمن الداخلي بأن يُطعم من جوع.
- والأمن الخارجي بأن يأمن من الخوف.

وبدأ بالجوع لأنه لا تتم الحياة أصلاً إلا بالسلامة من الجوع، فلو أن الإنسان جاع؛ حصل له الموت القريب، يعني خلال يومين ثلاثة أو أربعة يموت.

وأما الثاني: فهو الأمن من الخوف.

وهاتان نعمتان عظيمتان، أن يجد الإنسان قوتاً يقيم به جسمه، وأن يأمن على نفسه وماله وولده فيعيش مطمئناً، هاتان النعمتان متى تَمَّتَا فما وراءهما يعتبر فضلاً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا).

انظروا -يا إخواني- ليس الذي عنده سيّارة أو الذي عنده هاتف أو جوال أو الذي عنده مكيف أو الذي عنده عدد كبير من الألبسة أو... أو... إلى آخره؛ لا، (آمنًا في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا).

بعد ذلك ننتقل إلى السورة التي تليها وهي سورة الماعون.

هذه السورة تسمى بأسماء كثيرة، منها: سورة الماعون، وهذا أشهر الأسماء. ومنها: سورة أرأيت.

ومنها: سورة التكذيب.

ومن أسمائها: سورة الدين.

ومنها: سورة اليتيم.

يعني خمسة أسماء تقال لهذه السورة، لكن أشهر هذه الأسماء سورة الماعون.

هذه السورة مكيّة، هذا قول الجمهور.

ومن العلماء من يرى أنها مدنيّة وذلك لأنه جاء فيها قوله: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ

(٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ}، وهذا النوع من

البشر ما حصل إلا في المدينة.

ومن العلماء من قال: نصفها الول نزل في مكة، ونصفها الثاني نزل في

المدينة.

والذي يظهر -والله أعلم- أنها مكِّيَّة، ولا مانع أن يرد في السور المكِّيَّة ما يعالج صوراً لم تظهر ظهوراً تاماً إلا في المدينة، ألا ترون أن سورة المدثر سورة مكِّيَّة بالإجماع، ومع ذلك ذكر فيها النفاق، وذكر فيها الذي في قلوبهم مرض، قال: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ* وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ} [المدثر ٣٠، ٣١]، طيب من هم الذي في قلوبهم مرض؟

المنافقون لا شك أنهم منهم، هذا يدلنا على أن في الآيات المكية ذكر للنفاق، لكن ليس على وجه الاستيعاب، استيعاب النفاق وذكره وفضحه جاء في السور المدنية، وجاء الإشارة إليه في بعض الآيات المكية كما في هذه السورة، والعلم في ذلك عند الله.

هذه السورة عدد آياتها -كما ترون- سبع آيات، وفي بعض العدِّ ست آيات، لأنهم يرون أن قوله {الَّذِينَ هُمْ يُرْأَوْنَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} آية واحدة، ففي العد الكوفي والبصري سبع آيات، وفي العد المدني والمكي يرون أنها ست آيات.

كما أشرنا مراراً أن هذا الاختلاف في العدد ليس اختلافاً في ألفاظ وحروف القرآن، فليس أحدهم يزيد على الآخر في شيء، لكنهم يختلفون في موطن رأس

الآية، فمنهم مَنْ يعدُّ هذه آية، ومنهم مَنْ يلغيها فيجعل قوله {الَّذِينَ هُمْ يُرْءَاوْنَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} آية واحدة.

ثم محور هذه السورة في خصال الكفار التي تترتب على التكذيب بالدين.
 يا إخواني هناك أمر مهم جدًّا، وهو: أن من أعظم قواعد هذه الملة: الإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر أمانٌ من الشقاء، فالأمة التي لا تؤمن باليوم الآخر ستختلف تصرفاتها وأفعالها عن الأمة التي تؤمن بالله اليوم الآخر. لماذا؟
 لأن مَنْ يؤمن باليوم الآخر يؤمن بالجزاء، وأنه إن أحسن جُوزيَ بالجزاء الحسن، وإن أساء جُوزيَ بالجزاء السيء، فهو دائماً يترقب الآخرة ويخاف أن يصل إلى العذاب فيها.

أما مَنْ لم يؤمن باليوم الآخر ماذا يكون حاله؟ لا شك أنه يقول: ما دامت هذه هي الدنيا؛ إذن فلأتنعم فيها بأيِّ صورة، لماذا تذهب عليَّ الذِّة؟ لماذا فلان يتلذَّذ ويتنعم ويكون عنده الأموال الكثيرة وأنا ليس عندي شيء؟ فلاأسرق، فلاأعتدي عليه، فلاأظلم.

فهو يأكل مال اليتيم، ولا يصدق في الحديث، ويغش ويكذب، ويزني ويسرق، ويفعل كل ما يشاء، ولا يكلف نفسه شيئاً من الأخلاق الفاضلة، ولا يمنع نفسه عن شيء من الخلاق السيئة والتصرفات القبيحة، إذن الحجاب بين الإنسان وبين سوء الحياة هو إيمانه باليوم الآخر.

ولذلك جاء في هذه السورة ما يدل على هذا العنى بشكل واضح. {أَرَأَيْتَ
الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ
الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ
يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}.

هذه الخصال كلها تنتج عن عدم الإيمان باليوم الآخر. أرايتم كيف؟
ولذلك افتتحت هذه السورة بقوله: {أَرَأَيْتَ}، أعلمت وعرفت.
{الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ}، أي يكذب بيوم القيامة.
فالدين غالباً يُطلق في القرآن على الجزاء والحساب، ومنه قولهم: كما تدين
تدان.

وقد جاء في سورة الفاتحة: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]، أي مالك يوم
الجزاء والحساب.

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ}، يكذب بالجزاء الأخروي، والبعث والنشور
والجنة والنار؟

قال: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ}، "ذلك" اسم إشارة، لكنه إشارة للبعيد.
لاذا إشارة للبعيد؟

لبعده عن الله، وبعده عن الأخلاق الطيبة والأعمال الصالحة.

قال " {فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ}، ودعُّ اليتيم هو دفعه.

ومن المفسرين من حملها على ظاهر لفظها، قال: الذي يدفع اليتيم.

ومنهم مَنْ فسَّرها بمعناها، وكلا التفسيرين لا تعارض بينهما، قال: الذي يظلمه ويقهره.

الدَّعُّ يصلح بهذا وبهذا، فمن دفع اليتيم دفعاً بيديه فقد ظلمه، ومَنْ منعه حقَّه سواءً كان الحق له أصلاً كماله الذي ورثه من أبيه فقد دَعَّ اليتيم، أو كان حقاً له أوجبه الله - سبحانه وتعالى - في أموال الناس، كأن يكون مستحقاً للزكاة، مستحق للعطف والرحمة، {فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ}، يدخل فيه.

وقد كان في العرب قبل الإسلام ظلم للأيتام لكونهم صغاراً لا يحسنون أن يرعوا أموالهم، ولا أن يدفعوا الشر عنه، فكان الكبير في العائلة يحرمهم من حقوقهم ويستولي على تركتهم ويقهر هؤلاء الأيتام، ويقهر الضعفاء أيضاً من النساء؛ فلا يرثون مع ذلك الكبير شيئاً.

قال: {فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ}، واليتيم في الشرع هو مَنْ مات أبوه قبل البلوغ، بخلاف مَنْ ماتت أمه فإنه لا يسمى يتيماً.

قال العلماء: وهذا بخلاف الحيوان، فالحيوان يسمى يتيماً إذا ماتت أمه، والإنسان يسمى يتيماً إذا مات أبوه، ولكن ليس كل مَنْ مات أبوه يسمى يتيماً؛ بل لابد أن يكون ذلك قبل البلوغ، لأنه إذا بلغ أصبح رجلاً مستقلاً يدفع الضيم والشر عن نفسه وعن ماله.

قال: {وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ}، أيضاً من صفات هذا الذي يكذب بالدين أنه لا يحضُّ على طعام المسكين. لماذا؟

لأنه يقول أن هذا المسكين إنما صار مسكيناً بفعل الله وبقدره، أفأنا أستدرك على الله في قدره؟

كما قال الله عنهم في سورة يس {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ { [يس: ٤٧]، هذا المسكين لو شاء الله أطعمه، إذن فلماذا نحن نطعمه؟ إن شاء الله أطعمه وإن شاء ركه.

فهو لا يحضُّ على طعام المسكين، لأن مقصوده أن يأكل المال، هو يجب المال حباً جمًّا، ويجمعه جمعاً شديداً ويحرص عليه، يأخذه من حلّه ويأخذه من غير حلّه، ويضعه في غير محلّه.

قال: {وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ}، أي لا يحضُّ غيره لعى إطعام المسكين.

والمسكين هو: الذي ظهرت عليه المسكنة بسبب الفقر، لأن مسكين مأخوذ من المسكنة وهي الذلة التي تحصل لهذا الفقير بسبب قلة ذات يده.

قال: {وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ}، قال الله: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ}، هنا قال: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} هذا يدل على أنهم ماذا؟ يصلون.

إذن ليسوا تاركين للصلاة، ولكنه يبيّن أن عندهم وصفاً آخر في هذه الصلاة، قال: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}.

ومن هنا اختلف العلماء: هل معنى قوله {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} أنهم لا يصلون بالكلية؟ أو أنهم يصلون لكن بعد أن يؤخروا الصلاة عن وقتها؟ أو أنهم يصلون لكنهم يفرطون عندما يؤدُّون هذه الصلاة؟ فهم يؤدُّونها كيفما اتفق بقصدٍ لا بسهوٍ يحتم عليهم أو يصيبهم من دون اختيارهم كما يحصل عنا في صلاتنا، فنحن نصلي ونسهوا في الصلاة، هل ندخل في هذه الآية؟ لا، لأنه لم يقل: "الذين هم في صلاتهم ساهون"؛ وإنما قال: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}.

وبهذا يكون المعنى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} أي يؤخرونها عن وقتها، أو أنهم لا يبالون بها أصلاً، كما قال الله عن المنافقين: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢].

قال: {الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ}، وصفهم الله - سبحانه وتعالى - بوصف عجيب وهو أنهم يراؤون، بمعنى أنهم إذا قاموا بشيء من العمل أو من العبادة أو من الطاعة ففعلوه رياءً، ومعنى الرياء: أن يطلب الإنسان رؤية الناس، فهو لا يريد من عمله إلا نظر الناس إليه - نسأل الله العافية والسلامة.

وعندنا شيئان:

- الرياء.

- والسمعة.

الرياء: أن تطلب رؤية الناس.

والسمعة: أن تطلب سماع الناس، يعني قد لا يروك ولكن تُسمّع، تقول: أنا فعلت، وفعلت، وفعلت؛ هذا تسميع، (ومن رأى رأى الله به، ومن سمّع سمّع الله به)، نعوذ بالله من الرياء والسمعة.

قال: {الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ}، كما وصف الله المنافقين قال: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢]، يعني لا يقومون إلى الصلاة إلا من أجل أن يطلبوا رؤية الخلق لهم -والعياذ بالله. قال: {وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}، أيضاً من صفاتهم أنهم يمنعون الماعون.

وقد اختلف في الماعون ما هو، فقيل: الماعون هو المال، يمنعون المال، يعني يمنعون الزكاة ويمنعون أداء حق الله -عز وجل.

وقيل: بل الماعون هو: كل ما تملكه وله منفعة، فهم يمنعون منفعة الأشياء التي بأيديهم، مثل أن تمنع منفعة القلم، ومنفعة الطاولة، والكرسي، والإناء، والقدر، منفعة السيارة، كل ما يُعار ويُوهب مما يأخذ الناس منه منفعة ويبقى أصله. وهذا هو الأظهر، فإن الماعون يُراد به ما يدل على مثل هذه الأثاثات والأشياء التي يملكها الناس -يملكون أصولها- ولها منافع، فهم يمنعون منفعتها لغيرهم.

وإذا كانوا يمنعون ذلك فهم يمنعون ما أوجب الله عليهم من باب أولى من أداء حق الله -عز وجل- كالزكاة ونحو ذلك مما أمرهم الله -سبحانه وتعالى-

أن يؤديه للفقراء والمساكين، فهم يمنعون المنفعة، ويمنعون ما هو أعظم وأشد، وهو الزكاة وما أمرهم الله - سبحانه وتعالى - أن يؤدّوه.

ومن هنا قال العلماء أنه يحرم على الإنسان أن يمنع أخاه المسلم أن ينتفع بشيء من أدواته وأشياءه إذا كان مستغنياً عنها، كإنسان قال: لو سمحت أريد هذا الكأس لأشرب به، ما يجوز لك أن تمنعه ما دمت غير محتاج له فيجب عليك أن تمنح لأخيك لينتفع به ثم يردّه إليك.

طبعاً هذ يكون مع أمن ردّه، فإذا لم يأمن الإنسان أن يُردّ فلا يجب عليه هذا الأمر.

إذن هذه هي الخصال التي تنتج عن التكذيب بيوم الدين، وهذا ما نشاهده من الكفار في كل مكان، فالكفار عادة تجدهم لأنهم يكذبون بالدين ويكذبون بالجزاء والحساب وباليوم الآخر؛ تحصل منهم هذه المنكرات شيئاً طبيعياً، لأنه لا يرجو إلا الدنيا، ويريد أن يتمتع بها، فكل ما يحصل من متاع الدنيا يصرف على شهواته، لا يُطعم به مسكيناً ولا يدفع به حاجة محتاج، ويحرص على أن كل مال يقع بيده يأخذه، مال يتيم، امرأة، مسكين، ضعيف، مثلما فعلت الدول المستعمرة بالدول المستعمرة، عندهم سلاح وجأؤوا إلى بلد كانت ضعيفة وهشة فاستولوا عليها وأخذوا حياتها ونهبوا أموالها، ثم استعبدوا أهلها في صناعة حضارهم في بلادهم، فأخذوا من دول أفريقيا أعداداً مهولة من أجل أن تعمل وتستعمل في السخرة وفي الأعمال التي لا يطيقها الرجل الأبط.

نتقل بعد ذلك إلى سورة الكوثر.

تفضل يا شيخ..

{شيخ - أحسن الله إليك- إذا توفرت خصلة واحدة من هذه الخصال في رجل؛ هل يُطلق عليه أنه مكذب بالدين؟}.

لا، هي ليست عكسية، المكذب تحصل منه هذه، ولكن كل مَنْ حصل منه شيء منها كان مكذباً بيوم الدين، قديكون وقد لا يكون، فقد يوجد إنسان يمنع الماعون ولا يعطي متاعه لحاد ما وهو مصدق بيوم الدين، لكن يغلبه البخل والشح.

{طيب يا شيخ - أحسن الله إليك- لما أخّرت الصلاة {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ}، بعد دَعِّ اليتيم وبعد إطعام المساكين، لِمَ أخّرت مع أنها الأولى أن تُقدّم؟}.

طيب، الجواب على ذلك -والله أعلم: أن دَعِّ اليتيم والحض على طعام المسكين أمر مشترك بين البشرية كلها، ولذلك بدأ بأعمال الكفار التي هي عدم الحض على طعام المسكين دَعِّ اليتيم، ثم انتقل إلى الصنف الآخر الذي يُظهرون الإيمان ويُطِنون الكفر، وهم الذين نصفهم بوصف النفاق.

ثم أيضاً نلاحظ دائماً أن الإسلام يؤثر عندما يحض على الأعمال الطيبة، يؤثر الأشياء التي يكون فيها نفع للآخرين وفيها رحمة بالخلق، وهذا يدلنا على أن من أعظم مكاسب الإيمان باليوم الآخر: اكتساب الرحمة، فالذي يمنحك من

الظلم ويحملك على رحمة العباد هو علمك بان الله يجازيك ويحاسبك على كل أمرٍ من الأمور.

طيب، الوقت معنا -يا إخواني- فنأخذ سورة الكوثر.

سورة الكوثر تسمى سورة الكوثر، وتسمى أيضاً سورة إنا أعطيناك الكوثر، وتسمى أيضاً سورة النحر.

وهذه السورة اختلف فيها هل نزلت في مكة أو في المدينة؟ لأن بعض الرويات التي جاءت تدل على أنها نزلت في المدينة، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أنزلت علي أنفاً سرّة {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، أتدرون ما الكوثر؟ نهر أعطانيه الله)، إلى آخر ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الحديث يرويه أنس بن مالك. وأكثر العلماء على أنها نزلت بمكة، وأنها عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك لأصحابه في المدينة أنه ما أراد أنها نزلت عليه ولم تنزل عليه من قبل وإنه أراد أن يُبين لهم معناها.

هذه السورة طبعاً ثلاث آيات بلا إشكال.

ومحوها حول ما أعطى الله رسوله، وما خصّه به، ماذا يجب عليه أمام هذه النعمة التي أعطاه إياها، وماذا أعدّ الله وادّخر لأولئك الذي سبّوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وشتّموه، فهي في مقام رسول الله، وما يجب عليه تجاه ذلك الفضل الذي اختصّه الله به.

وأما مناسبتها فظاهر، لأنه في السورة التي قبلها، أولئك الذين يكذبون بالدين ماذا يحصل منهم؟ يدعُونَ اليتيم، لا يحضون على طعام المسكين، يمنعون الماعون. هنا: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، اعبد الله - سبحانه وتعالى - وانحر له، وانفع عباده، {إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

قال الله - عز وجل: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}.

{إِنَّا} صيغى التعظيم جاءت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليدل على أن هناك شيئاً عظيماً سيؤتاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

{أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، الكوثر يقولون: على وزن فَوَعَلَ، والكوثر هو الخير الكثير عند العرب، هذا معناه عند العرب، وقد اختلف المفسرون فيه، هل هو بمعنى الخير الكثير أو نهر أعطاه الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم؟

والصحيح أنه لا تعارض بين التفسيرين، فهو في اللغة بمعنى الخير الكثير، والنبي - صلى الله عليه وسلم - بين أنه قد أعطي هذا الكوثر الذي هو نهر في الدار الآخرة، فهو من الخير الكثير الذي أعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

وبهذا نحن نقول: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، أعطيناك الخير الكثير الذي منه ذلك النهر الذي أوتيته في الجنة.

وقد ورد في الأحاديث ما يدل على أن الحوض من الكوثر، وأن الكوثر نهر أعطاه الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - في الجنة، فالحوض يُطلق عليه

كوثر، النهر الذي في الجنة يُطلق عليه كوثر، وهما من الخير الكثير الذي أعطيه محمد -صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يكون بعضهم فسرّ بالمعنى اللغوي العام لشامل، وبعضهم فسرّ بما ورد في لفظ الحديث من أن الكوثر نهرٌ أعطيه النبي -صلى الله عليه وسلم. قال: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ}، لاحظوا قاعدة مطردة: كلما يُذكر عطاء لرسول الله ونعمة فإنه يُطلب منه في مقابلها شكر.

ولهذا يقول العلماء: كلما فتح الله لك نعمة ينبغي لك أن تفتح باب شكر، أنت اليوم تعلمت شيئاً من العلم ينبغي لك أن تشكر الله بلونٍ من الشكر، أعطيت مالاً، حصلت على هدية أو هبة هذا اليوم؛ اشكر الله، امنح شيئاً من هذه الهدية لفير أو يتيم اومسكين أو قريب أو محتاج.

منحك الله سيارة، ماذا تفعل بالسيارة؟ تشكر الله بها، تذهب بها إلى الصلاة وتذهب بها إلى طلب العلموتصل بها الرحم، تحمل بها أصحاب الحاجات، وهكذا في كل نعمة يُنعم الله بها عليك.

قال: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ}، هنا قوله {فَصَلِّ} لم يُبين أي صلاة.

من العلماء من قال أن القصود بها صلاة عيد الأضحى، ولكن اللفظ عام يشمل عيدالأضحى ويشمل غيره من الصلوات، فالمقصود: صلّ لربك ولا تصلّ لأحد غيره.

{وَأَنْحَرْ} ما معنى قوله {وَأَنْحَرْ}؟ اختلف المفسرون:

- فجمهورهم على أن معناها: انحر، يعني اذبح، النحر يُطلق على ذبح الإبل، يسمى نحرًا، وهذا عليه جمهور المفسرين.

- ومنه مَنْ قال "انحر" أي اجعل يدك اليمنى على يدك اليسرى على صدرك.

- ومنهم مَنْ قال: "انحر" يعني ارفع يديك حذاء نحرك عند الصلاة.

والصحيح هو القل الأول لأنه الأقرب إلى المعنى اللغوي، وهي قريبة من قول الله في سورة الأنعام {قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢]، فجمع بين الصلاة والنسك.

واختير النحر من بين عبادات كثيرة لأنه يتحقق به مظهر من مظاهر التوحيد، فالصلاة مظهر من مظاهر التوحيد، والنحر مظهر آخر من مظاهر التوحيد، لأن الإنسان ينحر باسم الله، فيقول: بسم الله أذبح هذه الذبيحة مبتدئًا أوقاصدًا اسم الله - سبحانه وتعالى.

قال: {إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، {إِنْ شَأْنُكَ} أي مبغضك وكارهك وسأبك وشاتمك هو الأبتَر.

وقد قيل أن هذه الآية نزلت للرد على أولئك الذين كانوا يعيرون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأنه أبتَر، يعني لا يبقى له ولد، فكانوا يعيرونه بالمبتور أو الأبتَر، فبيّن الله - سبحانه وتعالى- أن كل مَنْ شتمه وآذاه وأبغضه هو الأبتَر.

وسبحان الله! أين هم الذين عيَّره؟ أين هم الذين آذوه؟ أين هم الذي شتموه وسبَّوه؟ قد ذهبوا في مزبلة التاريخ، لا تعرف حتى أسماءهم، وبقي هو -عليه الصلاة والسلام- إلى اليوم لا تخلو ثانية واحد على هذا الكوكب أو على هذه الكرة الأرضية من ذكره، فذكره يُعلن على المنابر، والمنائر، وعلى الألسن، وفي القلوب.

{إِنَّ شَأْنَكَ} أي مبغضك.

{هُوَ اللَّابِئْرُ} المقطوع ذكره، والمقطوع عنه الخير في الدنيا وفي الآخرة.

ننتقل بعد ذلك إلى سورة الكافرون.

هذه السورة هي تسمى سورة الكافرون، وسمى سورة الإخلاص، لأنها أخلصت العبادة لله -عز وجل.

وهذه السورة سورة عظيمة تُشرع قراءتها في الركعة الأولى من سنة الفجر، وأيضاً في سنة أو في صلاة الشفع قبل الوتر يقرأ الإنسان سبح اسم ربك العلى في الركعة الأولى وقل يا أيها الكفرون في الركعة الثانية وقل هو الله أحد في ركعة الوتر. لماذا؟ لأنها سورة من سور الإخلاص، مَنْ قرأها مؤمناً بها فكأنما أعلن لله -عز وجل- أنه لا يعبد أحداً سواه، فهو يعلن التوحيد لله -عز وجل.

ولذلك تسمى هي مع سورة قل هو الله أحد تسميان: سورتي الإخلاص، هذه في الإخلاص العملي -وهي سورة الكافرون- ولك في الإخلاص المعرفي

العلمي {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [سورة الصمد].

هذه السورة تُقرأ أيضاً عند النوم، وتقرأ أيضاً في ركعتي الطواف، تقرأ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، لاحظ أنها في كل المواطن التي تُقرأ فيها كأنما يجدد الإنسان توحيده لله -عز وجل.

ولذل يقع يوم الإنسان بين هاتين السريتين، عند النوم أو في آخر يومك تصلي الوتر، فتقرأ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، وعندما تستيقظ في الصباح وتبدأ همارك؛ أول شيء تُبدأ به ركعتا الصبح تقرأ فيها قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، فتعلن التوحيد في أول النهار وتختتم يوم وليلتك بهاتين السورتين العظيمتين لأنك تريد أن تقرّ لله -عز وجل- بأنك مخلص له، لا تعبد أحد سواه، توحدّه في بويته وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته.

هذه السورة طبعاً ستُآيات بالإجماع، وهي سورة مكية أيضاً بالإجماع، وقد قيل إن سبب نزولها أن المشركين لما يئسوا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يتنازل عن دعوته قالوا له: يا محمد، اعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، يعني حل وسط، وعلموا أن هذا الحل الوسط -في نظرهم- لا يمكن أن يكون حلّاً وساً في الإسلام، لأنه عدول عن الحق.

كيف أعبد آلهتكم سنة؟ لو عبدتُ آلهتكم ثانية واحدة لكنت من المشركين، لأن التوحيد لا يقبل أن يُخلط معه جزئى من جزئيات الشرك، فلو أن إنساناً سج لله طول عمر وقال: أنا سأجعل ثانية واحدة للصنم؛ لكن مشركاً.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي يرويه عن ربه: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»، وفي رواية: «فهو للذي أشرك، وليس لي منه شيء».

ومن هنا جاءت هذه السورة التي قال الله -عز وجل- فيها: قل يا محمد، وأي سورة تبدأ بـ "قل" أو آية؛ فاعلم أنها آية مهمة وعظيمة، كما تقول عندما تُحمّل إنسان رسالة تقول له: قل لهم كذا وكذا.

لماذا تؤكّد بكلمة "قل"؟ لتبيّن عظمة الرسالة والمحتوى الذي تريد أن ينقله الرسول.

{قُلْ} يا محمد لهؤلاء: {يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، أي ما دمتم على كفركم، وبها ينحل الإشكال لدينا وهي: كيف يقول الله -عز وجل- {لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ؟ وهؤلاء منهم مَنْ أسلم فعبد الله -سبحانه وتعالى؟ كيف يقول لهم هذا؟

نقول: لأنهم ما داموا على كفرهم لا يمكن أن يعبدوا ما يعبد رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

أما إن آمنوا فلا يتوجه الخطاب أصلاً إليهم، لا يُقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، واضح؟

فأنت أيها الكافر لا يمكن أن تعبد الله. قل: كيف؟ أنا يمكن يوم من الأيام أسلم؟

قلنا: إذا أسلمت ما أصبحت كافراً، فما دمت على كفرك لا يمكن أن تعبد الله حتى لو سجدت لله -يعني في نظرنا- ولم تسجد للصنم؛ أنت كافر، لأنك ما أقررت لله -عز وجل- بالتوحيد، يعني الكافر لو سجد لله سبعين سنة ولا أقر لله بالتوحيد؛ هل يكون عابداً لله؟ لا يكن عابداً لله. واضح هذا المعنى؟
 ولذلك: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}.

أولاً: لاحظوا هذا التكرار لماذا؟ لتأكيد أنه لا يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب، وأن المفاصلة قائمة بين الموحّد المشرك، فالوحد هو الذي يقرّ الله بالعبودية، ولذلك نقول كهذا التأكيد الذي في هه الآيات يدلنا على عظمة التوحيد أولاً.

ثم يأتي هنا المعنى {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} أي في الحاضر والمستقبل، لا أعبد في هذا الوقت ما تعبدونه ولا أنا عابدون في هذا الوقت ما أعبد، ولا أنا عابد فيما مضى من الزمن أنا لستُ عابداً لأهتكم، ولا أنتم فيما مضى من زمنكم عابدون ما أعبد، فالأوليان في الحاضر والمستقبل،

الأخريان في الماضي الذي قبل هذا الوقت، وهذا كله من اجل التأكيد، ولذلك
اختلف العلماء:

- منهم مَنْ قال: الأوليان للماضي، والأخريان للحاضر والمستقبل.
- ومنهم مَنْ قال العكس. وهذا هو الذي رجَّحه شيخ الإسلام بن تيمية.
ثم خُتمت السورة بقوله {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، لا يمكن أن يجتمع
الدينان، دين الكفر ودين الإيمان والتوحيد لا يمكن أن يجتمعا، وهذه فيها أعظم
الرَّد على الذي ينادون بوحدة الأديان، وأن أنتم يا مسلمين ويا نصارى ويا
يهود ويا مشركين كلكم طيبين وكلكم تدخلون الجنة، وما في أحد كافر، وما
في أحد يسبُّ الآخر، ولا يفاصل الآخر أو يلغي الآخر؛ لا، مَنْ ترك الحق فهو
ملغى، فنحن نقول: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، دين الحق لا يجتمع مع دين
الباطل أبداً.

نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يفقهنا في دينه وفي كتابه، وأن يجعلنا من
أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وإلى لقاء والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته.